الفصل الثاني

سياسة الأمويين نحو دول المغرب في عصر الخليفة الحكم المستنصر بالله

(350 ـ 366 هـ / 961 ـ 976 م)

اعتلى الحكم المستنصر بالله دست الخلافة بعد وفاة أبيه عبد الرحمن الناصر لدين الله ، سنة 350هـ / 961م ، وهو كبير السن ، اذ بلغ من العمر سبعة واربعين سنة أو ثمانية واربعين ، وهذا راجع الى طول حكم أبيه ، حتى كان الناصر لدين الله يمزح معه دائما ويقول له : «لقد طوّلنا عليك يا أبا العاصي» (1) .

الا أنه فيما يبدو ، كان خبيرا بشؤون الحكم والدولة ، لأن أباه كان يشركه في تدبير أمورها ، خلال فترة عهده الطويل ، الذي امتد نحو خمسين سنة .

كان الحكم حسن السيرة عادلا عالما شغوفا بالعلوم والقراءة ، حريصا على اقتناء الكتب النادرة ويتصيدها ، من مختلف الاقطار والبلدان ، مهما كلفه ذلك من ثمن ، وغالبا ما كانت تأتيه التواليف من المشرق قبل ان يطلع عليها اهلها هناك .

فقد كان له وراقون ، وعملاء في كل من بغداد ودمشق والقاهرة وغيرها ، ينتخبون له الكتب ، المختلفة في العلوم والفنون والآداب وينسخونها له (2) .

ونتيجة لهذا الإهتمام العلمي الذي بذله الخليفة الأموي بقرطبة تكونت لديه مكتبة ضخمة بالقصر الخليفي بمدينة الزهراء ، ضمت نحو أربعمائة ألف مجلد ، في مختلف العلوم والفنون والآداب ، ومما يسترعى الانتباه ان معظم المصادر تجمع على

---

(1) ابن الابار : الحلة السيراء جـ 1 ص 200

(2) ابن الابار : المصدر السابق جـ 1 ص 202 ـ عبد الواحد المراكشي : المعجب ص 61 ـ المقرى : نفح الطيب جـ 1 ص 362 .

أن الخليفة المستنصر بالله ، إطلع على هذه المؤلفات كلها ، ولم يكتف بقراءتها فقط ، بل كان يعلق على هوامشها بخطه (1).

ولم يقف عند حد اصطياد الكتب والتواليف فحسب ، بل تعدى ذلك الى استقطاب رجال العلم والادب ، من انحاء العالم الاسلامي الى عاصمته (2) ، واغدق عليهم العطايا واباح لهم خزانة الكتب يطلعون عليها ، سواء منهم العلماء المسلمون أوغيرهم .

وله أيضا نواح أخرى خيرة ، تتجلى في الأعمال الجليلة التي قام بها خلال فترة حكمه ، مثل تيسير العلم والتعليم المجاني للجميع ، اذ انه فتح عدة كتاتيب بقرطبة ، وارباضها لابناء الفقراء يتلقون فيها مبادىء القراءة والكتابة وأصول الفقه وحفظ القرآن دون مقابل (3).

أما الاعمال العمرانية فقد أخذت شأوا كبيرا في عهده ، وأهمها تلك الزيادة التي أحدثها في المسجد الجامع بقرطبة من جهة القبلة سنة 350هـ / 961م ، اي بعد توليه كرسى الخلافة مباشرة ، وهو دليل على التزايد المستمر لسكان العاصمة الاندلسية .

وعلى الرغم من هذه الانشاءات العمرانية والخيرية المتباينة الى جانب انشغاله بالقراءة ومطالعة الكتب ، ومجالسة العلماء ، وتسيير شؤون الدولة . والرعية ، كان يقوم بتجهيز الصوائف والشواتي بانتظام لجهاد المسحيين في الشمال ، وذلك للمحافظة على استقرار حدود دولته وتثبيتها .

سياسة الحكم المستنصر بالله المغربية

والظاهر ان الخليفة الحكم لم يتورع في أتباع سياسة أبيه عبد الرحمن الناصر في عدائه الشديد للفواطم ، وأتخاذ كافة الاحتياطات اللازمة لذلك (4).

---

(1) ابن الابار : الحلة السيراء ج 1 ص 202 ـ عبد الواحد المراكشي : المعجب ص 62 ـ المقرى : نفح الطيب ج 1 ص 371 / 372 .

(2) عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ص 59 ـ المقرى : المصدر السابق ج 1 ص 371 . راجع كتاب الدكتور : السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ص 313 ـ 314 .

(3) انظر كتاب الدكتور احمد مختار العبادى : في تاريخ المغرب والاندلس ص 227 .

(4) L. Provençal : Hisoire, T. 2., p. 195.

واذا كان موضوع البحث هو سياسة الحكم المستنصر نحو المغرب ، فلا مناص من أن نتطرف الى نوعية هذه السياسة ، وأبعادها ومظاهرها وآثارها ، في العلاقة الأندلسية المغربية ، وما نتج عنها من احلاف وتكتلات متناقضة ، (1) زجت بالمغاربة في متاهة من الحروب والصراعات الطويلة بين بعضهم البعض ، وهي احدى مظاهر الانحطاط الاجتماعي والسياسي ، التي أدت الى عدم وجود كيان مغربي موحد .

والحقيقة ان علاقات الامويين بالمغاربة ، تتوقف على نوع العلاقات بين هؤلاء المغاربة وبين الفاطميين في المغرب ، فالأمويون في الأندلس كانوا يهتمون بشتى الوسائل ليتجنبوا الخطر الفاطمي الذي بات يهددهم ، بحيث صاروا يقنين تماما بأنهم اذا لم يسهروا على دولتهم سهرا حازما سوف يطغى عليهم الفواطم الذين كانوا يتحينون الفرصة لذلك .

لهذا رغب بنو أمية في التوسع ناحية بلاد المغرب أولا وفرض نفوذهم عليه وايجاد خط دفاعي أول في هذه المنطقة ثانيا كما عملوا على جذب الحلفاء والانصار الى جانبهم من رؤساء القبائل وامراء المغرب وتحريضهم ، على الدولة الفاطمية .

كانت الدعوة الاموية في المغرب قد بدأت تتقلص ، وانقبض اولياؤهم الى اعمال سبتة ، وطنجة ، بعد حملة الشيعة بقيادة جوهر الصقلي الموجهة للمغربين الاوسط والاقصى ، وبوفاة الناصر لدين الله . لكن الحكم المستنصر بالله ، لم يترك الامور تتدهور وتتفاقم ، وواجه الموقف بحزم وجدية فاتخذ قرارا يتعلق بالاحتياطات العسكرية وتحصين المواقع الاستراتيجية اللازمة للامن والتي يستدعيها الوضع الراهن فاستهل عمله بأن أسقط على أهل سبتة الوظائف المخزنية والمغارم السلطانية سنة 353هـ/ 964م ، ثم خاطب أمراء المغرب ورؤساء قبائله ، سالكا في ذلك الخط السياسي الذي رسمه أبوه من قبل ، وكان أول من استجاب له ، زعيم زناتة محمد بن الخير بن محمد بن خزر ، لما كان لأبيه وجده من ولاية للناصر لدين الله (2) .

---

(1) متناقضة لأنها كانت تعتمد على سيادة العصبية القبلية ، ورئاسة الاسرة ، اى ان هذه الاحلاف والتكتلات لم تكن تملك مقومات الدولة الراسخة المستقرة ، بل كانت تستند في سلطانها على حشود القبيلة وكانت تجرى في الحكم على قاعدة الاستبداد المطلق . انظر : دول الطوائف للامتاذ محمد عبد الله عنان ص 46 ـ القاهرة 1960م . ومقال ابراهيم فخار : بنوبرزال ص 58 .

(2) ابن خلدون : العبر ، ج 7 ص 55

L. Provençal : Histoire, T. 2, p. 185.

وتضاعف عزم الحكم في حماية اعمال العدوة المغربية فحشد عزائم المغاربة ضد الفواطم وبسط آمالهم (1) بالترغيب تارة ، والترهيب أحيانا حتى انقاد اليه الكثير منهم ، وحرصا منه على تحصين حدوده الجنوبية ، فقد تحرك بنفسه سنة 353هـ / 964م من قرطبة الى المرية ، قاعدة اسطوله لمعاينة ما يجري بها من تحصينات ، ولتفقد احوال المجاهدين المرابطين بهذا الثغر البحري استعدادا منه لمواجهة أى هجوم فاطمي متوقع على الجبهة الشرقية للأندلس (2) .

كما عمل على تطوير الاسطول ، وضاعف في عدده وعدته اذ قفز عدد السفن من ثلاثمائة في عهد أبيه عبد الرحمن ، الى ستمائة قطعة في عهده ، وجعل من مدينة المرية مقرا رئيسا ، لهذا الاسطول الضخم لمواجهة الخطر الفاطمي ، في حين جعل من مدينة اشبيلية مقرا ، للأسطول المرابط على سواحل المحيط لمواجهة الخطر النورماندى (3) .

ونتيجة لهذه السياسة الأموية ، فقد اسرع الادارسة العلويون الى تجديد الولاء والطاعة للخليفة الجديد . فهناك رواية المؤرخ المغربي أبن عذارى تذكر ، بأن الخليفة الحكم قعد على السرير بقصر الزهراء ، في النصف من شوال سنة 356هـ / 967م ، فعودا بهيا لاستقبال رسولين ، وصلا من امراء المغرب الادارسة ، لتجديد المبايعة ، والتزام الطاعة ، فأدنى الخليفة اليه هذين الرسولين والطف جوابهما (4) .

وتتابعت الرسل والوفود على قرطبة من المغرب لتقديم الولاء والطاعة للعاهل الأندلسي. وتدعيم الصلة القوية بين المغاربة والاندلسيين . وتلتمس في نفس الوقت من حكومة قرطبة ، الامدادات والمساعدات العسكرية ففي المحرم سنة 360هـ / 970م احتفل الخليفة المستنصر بالله بقدوم ثلاثة رسل هم : عيسى بن محمد ، ومحمد بن العالي ، وحسن بن علي ، من بني محمد الادارسة امراء المغرب ، يجددون الولاء

---

(1) مؤلف مجهول : مفاخر البربر ص 6 .

(2) ابن عذارى : البيان ج 2 ص 336 ـ 237 ، محمد عبد الله عنان ـ دولة الاسلام في الاندلس (الدولة العامرية وسقوط الخلافة الاندلسية) ص 43 القاهرة 1958 .

(3) د . السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الاسلامية ص 42 ـ 43 المغرب الكبير ، ج 2 ص 613 .

(4) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج 2 ص 240 .

للامويين وطاعتهم ، ويطلبون منهم مساعدة عسكرية ، وايفاد بعثة تتكون من الرماة ، لتعضيدهم وتقويتهم ضد أى هجوم مفاجيء . يتعرضون له من الجيش الفاطمي وحمل الوفد للخليفة هدية قيمة من خيل وجمال وغير ذلك ، فسر بها وتقبلها احسن قبول (1) .

أستمرت السيادة الفاطمية الأموية المشتركة سائدة في بلاد المغرب ، تطعمها روح المنافسة ، والعداء التقليدي بين بني هاشم ، وبني أمية من جهة ، وبين قبيلتي صنهاجة البرنسية ، وزناتة البترية من جهة أخرى (2) ، فالصناهجة حلفاء الفواطم بينما زناتة مؤيدة للنفوذ الأموي في المغرب . وأصبح الصراع في بلاد المغرب عبارة عن صراع بين صنهاجة وزناتة ، وضرب بعضهما ببعض . وبات واضحا كل الوضوح ، ان البرانس فاطميون والبتر أمويون (3) .

أما الفاطميون والأمويون ، فاقتصروا على اثارة الفتن والدسائس من وراء الستار (4) . حتى أصبح المغرب منقسما على نفسه يعيش في فوضى مظلمة تحت ظل الدسائس العديدة ، والحروب المتكررة ، الى النصف الثاني من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادي ، حيث تمكنت صنهاجة أوبني زيرى ، من فرض سيطرتها باسم الدولة الفاطمية على القسم الشرقي للمغرب حتى نهر ملوية (5) .

أما القسم المتبقى منه ، وهو القسم الغربي من نهر ملوية الى طنجة ، فقد ظل يخضع لسيطرة زناتة ، وحلفائها الامويين في الأندلس ، وهكذا حدث نوع من توازن القوى في المنطقة ، بين الخلافتين : الفاطمية المتمثلة في الزيريين ، والاموية المتمثلة في الزناتيين ، والظاهر أن وطأة الشيعة قد خفت بعض الشيء عما كانت عليه من قبل ، بسبب تحول مقر الدولة الفاطمية من افريقية الى مصر (6).

---

(1) ابن عذارى : البيان ، ج 2 ص 241

(2) L. Golvin : Le Maghrib central à l'époque des Zirides, recherches d'archéologie et d'Histoire, p. 34.

(3) د . حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين ، ص 78 مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1957م .

(4) د . احمد مختار العبادى : في تاريخ المغرب والاندلس ص 229

(5) ابن حيان : العبر ، ج 7 ص 59 ـ د . احمد مختار العبادى : دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ص 83 .

(6) Ch. A. Julien : Histoire de l'Afrique du Nord, T. 2., p. 68.

انتقال مقاليد الامور الى صنهاجة في افريقية :

وقبل أن أتابع الحديث عن سياسة الحكم المستنصر بالله في بلاد المغرب ، رأيت أنه من الاهمية بمكان ، ان أقف وقفة قصيرة عند قبيلة صنهاجة أو بالاحرى عند بني زيري خلفاء الفواطم في افريقية والمغرب ، لنتعرف على كيفية وصولهم الى تأسيس دولة في هذه المنطقة ، دون غيرهم من القبائل المغربية الاخرى الموالية للدولة الفاطمية ، ولاسيما قبيلة كتامة ، التي قامت الخلافة الفاطمية على اكتافها وبين ظهرانيها ، حيث ان صناجة أصبحت الطرف الآخر القوى المنافس والمناوىء ، للنفوذ الاموى في الشمال الافريقي .

فبينما كان الخليفة الاموى الحكم المستنصر بالله يعمل بكل جدية ، على اتخاذ كافة الاحتياطات الضرورية لتأمين حدود بلاده الجنوبية من الغزو الفاطمي ، باكتساب تأييد زعماء المغرب ، كان الخليفة الفاطمي المعز لدين الله بصدد تنفيذ مشروعه لاحتلال مصر . فقد بعث جيشا كبيرا بقيادة «جوهر الصقلي» الى بلاد النيل (مصر) سنة 358هـ / 969م ، وتمكن هذا القائد من احتلالها ، وأسس بها عاصمة جديدة ، اطلق عليها اسم «القاهرة المعزية» وقد وصف الدكتور أحمد مختار العبادى ، هذا الحدث بانه فريد من نوعه ، اذ لم يسبق لمصر أن فتحت من حدودها الغربية ، الا في ايام الفراعنة حينما غزاها اللوبيون أيام الاسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين (1) .

عند ذلك أصبح المعز لدين الله ، يهتم أكثر بالمولود الجديد يوليه عناية اكبر ، حيث اخذ يوجه أنظاره نحو المشرق ، ويعد نفسه للرحيل من بلاد المغرب ، الذي أصبح استقرار الفواطم به مصدرا للمتاعب وبقاؤهم فيه محفوف بالمخاطر ، أمام هجمات المغاربة المتكررة ووثباتهم وتقلباتهم السريعة ، وبخاصة انه تحقق له ما لم يتحقق لغيره من أسلافه رغم المحاولات الكثيرة في إيجاد مقر جديد أكثر مأمنا واستقرارا من بلاد المغرب .

ولما عزم المعز لدين الله على المسير الى مصر ، أخذ يفكر فيمن يسند له ولاية المغرب

---

(1) د . احمد مختار العبادى : سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس ص 17 ـ دراسات ص 83 .

وقام باختيار ولاءأهم حلفائه (1) ، وأول من قصده من هؤلاء الحلفاء ليجس نبضه ، هو الأمير جعفر بن علي المعروف بالاندلسي صاحب مدينة «المسيلة» واقليم الزاب ، لكن هذا الأمير ، فشل في رده على الخليفة المعز لدين الله ، حينما عرض عليه الامر فقال للمعز : «تترك معي احد اولادك اوأخوتك يجلس في القصر ، وانا ادبر ، ولاتسألني عن شيء من الاموال ، لأن ما اجبيه ، يكون بازاء ما انفقه ، واذا اردت امرا فعلته ، من غير ان انتظر ورود امرك فيه لبعد ما بين مصر والمغرب ، ويكون تقليد القضاء ، والخراج وغيره من قبل نفسي» (2) .

فغضب المعز لهذا الرد ، الذي يوحي من البداية على رغبته في الاستقلال ببلاد المغرب ، فعبر عن ذلك بقوله : «ياجعفر : عزلتني عن ملكي ، وأردت أن تجعل لي شريكا في أمري واستبددت بالاموال والاعمال دوني ، قم فقد أخطأت حظك ، وما أصبت رشدك» (3) وخرج من مجلسه غاضبا .

وكان من بين القبائل الكبرى ، التي لها اتصال قوي بالفاطميين ، هي قبيلتي صنهاجة وكتامة .

اما زناتة فقد بذل الفواطم ، كل ما في جعبتهم من وسائل الاغراء والترهيب ، لكسب ولائها وتحويلها عن الامويين الا أنهم فشلوا في ذلك . واذا أردنا أن نتعرف على الوقت الذي ظهرت فيه علاقة صنهاجة بالدولة الفاطمية في المغرب لوجدناها مبكرة ، اذ انه من صالح الدولة الفاطمية الناشئة ، مصانعة قوى المنطقة المحيطة بها ، لتكون درعا واقيا لها ، وسندا قويا تستند اليه عند الحاجة .

أما بنوزيرى زعماء صنهاجة ، فانهم اظهروا ارتياحهم لقيام هذه الدولة الجديدة كما اظهروا كياسة ولباقة ، في التعامل معها ، وخاصة حينما آثروا الاستمرار في سياسة تجنب الاصطدام معها ، حتى يحتفظوا بقوتهم حين يحين الوقت المناسب لذلك . فالدعوة الفاطمية في بلاد المغرب ، نشأت بين ظهراني كتامة وجبالها ، وانتشرت

---

(1) راجع في هذا الصدد مقال : د . موسى لقبال : المعز لدين الله الفاطمي وجيل جديد من كتامة من خلال وثيقة فاطمية معاصرة ص 41 ، مجلة الاصالة عدد 30/29 يناير فبراير 1976 م .

(2) المقريزى : اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا ص 99 تحقيق د . جمال الدين الشيال القاهرة 1967م .

(3) نفس المصدر والصفحة .

بفضل سواعد رجالها ، واصبحت بذلك كتامة هي الدعامة القوية التي ترتكز عليها الدولة الفاطمية الناشئة وعصبها وسرّ قوتها .

وقد ادرك بنو زيرى هذه الحقيقة ، وبدلا من ان ينطووا على انفسهم ويقفوا من الفواطم موقفا عدائيا ، اخذوا يتقربون منهم شيئا فشيئا ، ليحلوا محل كتامة ، التي بدأت تستنزف قواها بسبب الحروب الكثيرة التي خاضتها ، وقد عمل أيضا بنو زيري جادين على ان يظهروا للفاطميين الولاء والاخلاص الصادقين . ولعل بنو زيرى ارادوا من وراء هذا العمل ان يبرهنوا للفواطم عن قوتهم وجدارتهم بمنافسة كتامة واحتلال مكانتها ، ولاسيما وأن الكتاميين ماانفكوا يخرجون من معركة الا ويدخلون لأخرى ، حتى انتهت قواهم ونقص عددهم (1) ، وهذا ما تأكد بالفعل حينما لعب بنو زيرى دورا بالغ الأهمية ، في حصار أبي يزيد مخلد النكاري (صاحب الحمار) للمهدية اذ استطاعوا ان يفكوا الحصار على الفواطم وتخليصهم من يد الثوار (2) ، ومنذ ذلك الوقت استرعت صنهاجة انتباه اصحاب افريقية وأصبحت ساعدهم الايمن .

لم يجد المعز لدين الله بدا من التوجه الى زعيم صنهاجة «بلكين بن زيرى» ، ليعرض عليه ولاية افريقية والمغرب . دون قبيلة كتامة التي وقفت هي الاخرى موقفا جافيا ، وعنيدا منه ، اشبه ما يمكن بموقف جعفر بن علي بن حمدون ، عامل مدينة المسيلة واقليم الزاب ، اذ بعث المعز الى شيوخ كتامة رسولا من أمنائه يختبر حقيقة طاعتهم وولائهم ، وقال لهم : «ياإخواننا قد رأينا ان ننفذ رجالا من قبلنا الى بلدان كتامة ، يقيمون بينهم ، ويأخذون صدقاتهم ومراعيهم ويحفظونها علينا في بلادهم ، فاذا احتجنا اليها انفذنا خلفها فاستعنا بها على ما نحن بسبيله» (3) .

عندئذ رد بعض شيوخ كتامة على رسول المعز بأنفة وكبرياء قائلين له : «قل لمولانا ، والله لافعلنا هذا أبدا ، كيف تؤدى كتامة الجزية ، ويصير عليها في الديوان ضريبة ، وقد أعزها الله قديما بالاسلام ، وحديثا معكم بالايمان ، وسيوفنا بطاعتكم في المشرق والمغرب » (4) .

---

(1) مراجع عقيلة الغناى : علاقات الامارة الصنهاجية بجيرانها وأثرها في ليبيا ص 22 بني غازى بدون تاريخ .
(2) ابن الاثير : الكامل ج 7 ص 47 .
(3) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص 98 .
(4) المقريزى : المرجع السابق ص 98

فعاد الرسول الى المهدية وأخبر الخليفة المعز بما دار بينه وبين الكتاميين ، فأمر باحضار جماعتهم وقال لهم : «ما هذا الجواب الذي صدر عنكم ؟» فقالوا : «نعم هو جواب جماعتنا ، ما كنا يامولانا بالذي يؤدى جزية تبقى علينا» (1) . عند ذلك قام المعز من شدة الغضب وادرك حقيقة كتامة ، بانها تريد ان تخلع عنها رداء الطاعة والولاء للفاطميين إن هم غادروا المغرب الى مصر ، أو هم قللوا من الامتيازات التي يتمتعون بها .

فعمل المعز على انهاء الموقف بقوله : «بارك الله فيكم فهكذا أريد أنتكونوا ، وانما أردت أن اجربكم ، فانظروا كيف انتم بعدى اذا سرنا عنكم الى مصر ، هل تقبلون هذا أو تفعلونه وتدخلون تحته ممن يرومه منكم ؟ والآن سررتموني بارك الله فيكم » (2) .

ولم يبق اذن سوى صنهاجة أمامه ، فبعث الى رئيسها يوسف «بلكين بن زيرى» ، الذي كشف عن سياسة ماهرة في الحوار الذي دار بينه وبين المعز لدين الله ، يدل على نضوجه السياسي ووعيه الدبلوماسي . كما يدل أيضا على دهائه وكياسته ، فلعله كان يتحين الفرصة ويتصيدها اذ أخذ يجامل المعز ويخادعه ، حتى يحصل على ما كان ينشده ، فقد تصنع الخوف من هذه المسؤولية الثقيلة الملقاة على عاتقه ، وهي ولاية افريقية والمغرب بكل ما فيه من فوضى سياسية واضطراب اجتماعي وتناقضات مذهبية ، فهي لم تَصْفُ لاهل بيت رسول الله (صلعم) فكيف تصفو اذن ليوسف بلكين وهو صنهاجي بربري ؟

هذا ما يتضح لنا من خلال المناقشة التي دارت بين الخليفة الفاطمي والزعيم الصنهاجي ، اذ قال له المعز : «تأهب لخلافة المغرب» ، فتظاهر بلكين بعدم القبول واكبر ذلك عليه وقال : «يامولانا انت وآباؤك الائمة من ولد رسول الله (صلعم) ماصفا لكم المغرب ، فكيف يصفو لي وانا صنهاجي بربري ؟ فتلتني يامولاى بلا سيف ولارمح ..» فلم يزل به المعز حتى قبل الأمر وقال : «يامولانا : بشريطة ان تولى القضاء

---

(1) المقريزى : المرجع السابق،ص 98

(2) المقريزى : اتعاظ الحنفا،ص 98

والخراج لمن تراه وتختاره ، والخبر لمن تثق به ، وتجعلني انا قائما بين أيديهم ، فمن استعصى عليهم امروني به حتى أعمل فيه ما يجب ، ويكون الامر لهم وانا خادم بين يديك» (1) .

فاستحسن المعز لدين الله الفاطمي جواب يوسف بلكين بن زيرى ، واعتبره يخدم مصالح الفاطميين في المغرب ، وشكره على قوله هذا وعهد اليه بامارة المغرب ، والحقيقة ان صنهاجة هي المرشح الوحيد في هذه الآونة والجديرة بالقيام بهذا الدور الشاق لان الكتاميين ـ كما جاء من قبل ـ انهكوا قواهم في بناء اركان الدولة الفاطمية وانتشارها في المغرب ومصر.

أما جعفر بن علي ، فليس له عصبية تحميه وتذود عنه وعن مبادىء الشيعة ، وليس له وزن بين القبائل المغربية الرئيسية الثلاثة : كتامة ، وزناتة ، وصنهاجة والظاهر ان الجفاء كان يسود العلاقة بين بني زيرى أصحاب «أشير» ، وبني حمدون اصحاب المسيلة ، بحكم الجوار في الأعمال ، والتنافس على السلطان ، وهذا ما سنعرفه بعد قليل .

ولما انصرف بلكين من حضرة الخليفة بعد تسلمه ولاية المغرب استفسر أبو طالب أحمد بن عبيد الله ، وهو عم الخليفة وكان حاضرا المقابلة عن صدى اجابة الزعيم الصنهاجي ، وقال للخليفة : «يامولانا : اوتثق بهذا القول من يوسف (بلكين) وانه يعني ما ذكره ؟ فقال المعز : يا عمنا كم بين قول يوسف وقول جعفر ، واعلم يا عم أن الأمر الذي طلبه جعفر ابتداء هو آخر ما يصير اليه أمر يوسف ، فإذا تطاولت المدة سينفرد بالأمر ولكن هذا أولا أحسن وأجود من ذوي العقول ، وهو نهاية ما يفعله من ترك دياره» (2) . وقد جاءت اجابة المعز لعمه اعترافا ضمنيا منه بالسيادة الاقليمية لاهل بلاد المغرب (3) ، اذ كان المعز يعرف مسبقا ما سيؤول إليه أمر المغرب بعد رحيله الى مصر ، وأن المسألة لم تعد أكثر من كونها مسألة وقت فقط فبنو زيرى سوف يستقلون بهذه المنطقة عن الفاطميين ، حسبما يرى الخليفة الفاطمي ، ولهذا فقد اتخذ المعز لدين الله بعض الإجراءات لذلك حيث استثنى من امارة الزيريين منطقة طرابلس ،

---

(1) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص 99

(2) المقريزى : المصدر السابق ص 99 ـ 100

(3) د . ابراهيم العدوى : بلاد الجزائر ، ص 269

ووضع عليها أحد الكتاميين (1) ، حتى يكون شوكة في ظهر صنهاجة ، واقتطع منهم أيضا جزيرة صقلية وولى عليها احد ثقاته الحسن بن علي بن أبي الحسن (2) ، ليكون اسطوله اداة طيعة في يد الفواطم يهددون به بني زيرى متى شاءوا ، وبهذا يكون الخليفة الفاطمي قد عمل قدر استطاعته على الحد من شوكة صنهاجة ، حتى لاتستطيع الاستقلال ببلاد المغرب (3) .

وهكذا بدأت افريقية والمغرب عهدا جديدا في ظل الحكم الصنهاجي ، وتجلت هذه المواهب الزيرية في الخطة التي رسمها شيوخ هذه القبيلة لانفسهم ، للمحافظة على بقاء مقاليد الامور في أيديهم ، اذ تابع زيرى بن مناد وابنه بلكين من بعده سياسة مساندة الفواطم ، والتصدى للنشاط الزناتي الاموي ، اعداء الفواطم الالداء ، فاصطدم بهم ودخل معهم في صراع عنيف وطويل ، ترتب عليه قتل شيخ زناتة محمد بن الخير بن محمد بن خزر في احدى المعارك ، التي دارت بينه وبين بلكين بن زيرى ، في شهر ربيع الآخر سنة 360هـ / 970 (4) . وبعدها بخمسة أشهر فقط لقى زعيم صنهاجة زيرى بن مناد نفس المصير ، في عملية انتقامية بالقرب من نهر ملوية ، دبرها له بنو خزر بالاشتراك مع آل حمدون امراء المسيلة ومواليهم بني برزال ، في رمضان سنة 360هـ / 970م . وهي السنة السابقة مباشرة لانتقال المعز لدين الله الفاطمي لمصر (5) .

ثم بعثوا علي البغدادي كاتب جعفر بن علي رسولا الى الحكم المستنصر بالله ، يحمل له خبر مقتل زيرى بن مناد ، وولاء آل حمدون وطاعتهم ويسألونه الاعتصام بدعوته والاعتراف بحقه (6) .

---

(1) ابن خلدون : العبر ، ج 6 ص 317 ـ النويرى : نهاية الارب ، ج 22 ص 137

(2) نفس المصدر والصفحة ـ النويرى : المصدر السابق ، حـ 22 ورقة 137 .

(3) حسن ابراهيم حسن وطه شرف : المعز لدين الله ، ص 66 مكتبة النهضة المصرية سنة 1947م .

(4) ابن حيان : المقتبس ، ص 38 ـ ابن الاثير : الكامل ، ج 7 ص 43 ـ مفاخر البربر ، ص 6 ابن عذارى : البيان ، ج 2 ص 243 ـ ابن خلدون : العبر ج 6 ص 315

(5) ابن حيان : المقتبس ، ص 36 ـ مفاخر البربر ص 6 ـ ابن عذارى : البيان ج 2 ص 242 . ابن خلدون :

(6) العبر ج 6 ص 316 ـ ابن عذارى : المصدر السابق ج 2 ص 242 .
ابن حيان : المصدر السابق ص 37

وكان جعفر بن علي عاملا على مدينة «المسيلة» واقليم الزاب للخليفة الفاطمي ، وأحد ثقاته البارزين في المنطقة ، والظاهر أنه فسد أخيرا ما بينهما بسبب منح المعز ثقته لقبيلة صنهاجة . وعقده لزعماء بني زيري ولاية المغرب وافريقية كما جاء من قبل . وقد ترتب على ذلك حدوث جفاء وكراهية في العلاقة بينه وبين بني زيرى ، والسبب فيما يبدو هو التنافس على الاعمال ، ونيل الحظوة عند صاحب افريقية (1) .

وقد أدت هذه الضغينة الى مساعدة زناتة ، وتحريضها على صنهاجة والظاهر انه كان يهاديهم من أجل ذلك ، ويبعث لهم بأخبار بني زيرى ربما تخص النواحي السياسة والعسكرية والاقتصادية ويحذرهم اذا ما علم بانهم يريدون الهجوم عليهم .

ويشير الى ذلك ابن حيان بقوله : «.. الى ان قتل محمد بن الخير وأخذ له فرسا من عتاق الخيل . كان امامه معد بن اسماعيل ، صاحب افريقية قد حمل عليه جعفر بن علي فأهداه جعفر الى محمد بن الخير ، فارسل به زيرى الى معد ، وبعث اليه بكتب اصابها في بيت ابن خزر بخط جعفر بن على يكاتب بها زناتة ، ويطلعهم على عورات زيرى ويحذرهم منه متى اطلع أنه يريدهم .» (2) .

وكان المعز قد بعث الى جعفر بن علي فرحا الصقلبي يستقدمه الى المهدية ، فتظاهر بالخروج اليه ، بأهله وولده وعبيده وعسكره وسلاحه وامواله واتجه نحو طريق القيروان ، ولكنه لم يلبث ان تحول نحو الغرب ومال الى زناتة ولحق بها . واعلن بذلك عصيانه على الفواطم وانحياشه الى بني أمية في الاندلس (3) .

ولما تمت هزيمة صنهاجة بعث جعفر بن علي أخاه يحيي بن علي ، وبعض شيوخ زناتة امثال : عبدون بن الخير بن محمد بن خزر ، ومسعود بن عطية بن عبد الله بن خزر ومقاتل بن أبي خزرون بن أبي العزيز خزر ، رَسُلاً منه الى قرطبة ، يؤدون الطاعة باسمه ويؤكدون البيعة ، ويلتمسون العون والنصرة من عاهل الاندلس (4) ،

---

(1) ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 1 ص 315 ، انظر ايضا ابن حيان الذي يذكر بان صنهاجة كانت تتعدى على اعمال جعفر بن علي ويرجع السبب في ذلك لمناخمة حدود اعمالهما ، وكانت أيضا تتحامل عليه وتسعى به للمعز انظر ابن حيان : المقتبس ص 37 . النويرى : المصدر السابق ج 22 ورقة 136 .

(2) ابن حيان : المقتبس ص 35

(3) نفس المصدر ص 37 ـ النويرى ج22 ورقة 136 مفاخر البربر ، ص 7 ـ ابن خلدون : العبر ج6 ص 315 النويرى ج22 ورقة 136 .

(4) ابن خلدون : المصدر السابق ج 6 ص 315

مصطحبين معهم رأس زيرى بن مناد زعيم زناتة المقتول ونحو مائة من رؤوس وجوه أصحابه (1) .

وقد شكل الخليفة الحكم المستنصر بالله ، وفدا كبيرا من رجال دولته لاستقبالهم والترحيب بهم ، فاستقبل « يحي بن علي » بمرسى « محملة » - بالقرب من بجاية من قبل باجيت بن محمد وأحمد بن عبد الملك صاحب المخزول وحلّ رجال زناتة بمرسى « المرية » في شوال سنة 360 هـ ، وقدمت لهم هدايا كثيرة من خليفة قرطبة وهي عبارة عن ثمانية وستين فرسا ونحو مائة وخمسين من البغال لحمل أثقالهم وضروب من الوطاء والغطاء والقباب والخيم (2)

ولم يلبث جعفر بن علي أن عبر هو الآخر الى الاندلس ، بعد شهر واحد فقط من وصول اخيه والوفد المرافق له الى بلاط الحكم ، لاحقا بهم ، فنزل بمرسى «بزليانة» (3) بكورة «رية» مرفوقا باهله ومواليه وعبيده ، فأمر الخليفة صاحب السكة والمواريث قاضي اشبيلية ، محمد بن أبي عامر بالخروج لاستقباله ومعه هدية ثمينة من الخليفة الى جعفر عبارة عن اربعة من عتاق الخيل ، وبغل اشهب مسروجين بسروج الخلافة وخمسين فرسا من جياد الخيل لحمل فرسانه ومائتي زاملة لحمل اثقاله ، وكثيرا من الاخبية والقباب وما شاكل ذلك مبالغة من الخليفة في تكريم جعفر بن علي ورجاله (4) .

هذا وقد اسهبت المصادر في وصف مراسيم هذا الاستقبال ، وحفاوته البالغة وتكريما من الحكم المستنصر بالله لهؤلاء الوافدين خصهم باستقبال رسمي فجلس على السرير بقصر الزهراء محفوفا برجالات دولته ، من حجاب ووزراء ، وقواد وأهل العلم والفقه والعدول وغيرهم من طبقات اهل الخدمة بالاضافة الى عمال الاقاليم وقواد الثغور الذين جاءوا لمشاهدة هذا الحفل البهيج فقد اصطفت الجيوش بمختلف

---

(1) ابن حيان : المصدر السابق ص 40 ـ 45 ـ مفاخر البربر ص 8

(2) ابن حيان : المصدر السابق ص 40

(3) بزليانة : Ventas de Bezmiliana قرية تقع في الساحل الاندلس الشرقي على البحر الابيض المتوسط تبعد عن مدينة مالقة Malaga بثمانية أميال : انظر كتاب المقتبس لابن حيان ص 41 حاشية رقم (1) .

(4) ابن حيان : المصدر السابق ص 41 ـ 42 ـ ابن عذارى : البيان ج 2 ص 243 ـ 244 .

فرقها وصنوف اسلحتها وملابسها المتباينة ، من رجالة وخيالة ، وفتيان وفرسان ومرتبين الى كتائب مصففة ومنظمة تنظيما عسكريا جميلا (1) ، حتى أن الشعراء الهمتهم هذه المناظر البديعة فنظموا قصائد كثيرة بهذه المناسبة (2) .

قرب الحكم اليه كلا من جعفر ويحيي وبني خزر ، ورفع منزلتهم ، تمشيا مع سياسة اصطناع الحلفاء التي رسمها أبوه من قبل ، وأغدق عليهم بالالطاف وأجرى على جعفر واخيه يحيي الف دينار دراهم (3) ، لكل واحد منهما في كل شهر ، فضلا عن نفقات القمح وغيره ، وأجرى أيضا على بني خزر كثيرا من الاموال ، والقمح المعلوفة وانفذ الى زناتة بالمغرب الأوسط اموالا جزيلة وخلعا كثيراً مكافأة لها على هذا الانتصار (4) .

ولما وردت الانباء الى المعز لدين الله ،بحدوث هاتين النكبتين معا وهي : خلع جعفر الأندلسي طاعة الفواطم ، ومقتل حليفه زيرى بن مناد الصنهاجي وهزيمة جيشه ، عظم عليه ذلك وازعجه ، فعجل بتقليد بكلين بن زيري أعمال أبيه في منطقة «أشير» وأضاف له مدينة «تاهرت» والمسيلة واقليم الزاب ، والاراضي التي

---

(1) ابن حيان : المقتبس ص 51 حول وصف هذا الاحتفال بقدوم جعفر واخيه يحيي وزعماء زناتة انظر كتاب : المقتبس لابن حيان ص 40 الى ص 57 .

(2) من بين هؤلاء الشعراء : محمد بن شخيص الذى نظم قصيدة عينية طويلة مطلعها :

بأيمن اقبال وأسعد طائر ... تباشير محتوم من الامر واقع

توافت بملك من مقوض ... لملك الى مهدى مروان راجع

المقتبس ص 54 .

والشاعر يوسف بن هارون الشاعر الرمادى الذي انشد بهذه المناسبة قائلا :

ولقد عجبت لفعلة المستنصر ... اذ اكشف الجيش اللهام لجعفر

ولوان من اهواه يبرز وجهه ... قامت لواحظه مقام العسكر

المقتبس ص 56 . ابن عذارى : البيان ج 2 ص 244

(3) دينار دراهم : اى يقدم لهم قيمة كل دينار بالدراهم ، وليس بالدينار الذهبي وقد اختلفوا فيما يساوى الدينار الذهبي من الدراهم . راجع : ابن حيان ، المقتبس ص 53 حاشية (3) تحقيق د . عبد الرحمن حجى راجع ايضا : ابو الحسن بن يوسف ضوابط السكة ص 140 وما يليها صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد العدد 1 ـ 2 مجلد (6) مدريد 1958م .

(4) ابن حيان : المقتبس ص 53 ـ مفاخر البربر ص 7

سيتم فتحها على يده من بلاد زناتة ، وزوده بجيش كبير ، وأمره بالتوجه الى المغرب في أول سنة 361هـ / 971م(1) .

توغل «بلكين» في أراضي زناتة ، وأنزل بها هزائم مريرة ، وقتل منها العدد الكثير ، وأجلاها من المغرب الأوسط ، ولم يقف عند هذا الحد ، بل أخذ يطارد فلولها الى ما وراء نهر ملوية الى احواز سبتة مدفوعا في ذلك بعامل الكراهية ووازع الانتقام لأبيه ، ثم عاد بعدها الى أفريقية ليودع المعز ويتسلم منه ولاية افريقية والمغرب (2) .

ثورة الحسن بن جنون الأدريسي على الحكم :

كان الزعيم الأدريسي الحسن بن جنون بن القاسم (3) يوالي بني أمية في الأندلس ، ويدانهم ، وأثناء حملة بلكين بن زيري الصنهاجي المذكور آنفا ـ طمع الحسن في الوثوب باصحاب الحكم المستنصر بالله ، وحلفائه في المغرب ، وكشف بذلك النقاب عن نواياه الحقيقية ، وهي عداوته لحكام الأندلس ، ويشير الى ذلك صاحب كتاب روض القرطاس الى أن ميوله الى صاحب قرطبة ، لم تكن عن حب صادق له ، وانما كانت عن خوف منه لقرب المسافة بين أعماله ، في الريف المغربي وبلاد غمارة وبين بلاد الاندلس (4) .

لهذا وجدناه عندما اتيحت له الفرصة ، قام بثورة عامة تمكن خلالها من احتلال مدينة طنجة ، وتطوان ، وأصيلا ، وسائر المنطقة الجبلية الممتدة شمال وادي لكوس واختار القلعة الشاهقة ، المعروفة بقلعة النسر أو حجر النسر في شمال شرق القصر الكبير مقرا لقيادته (5) .

---

(1) مفاخر البربر ص 8 .

(2) مفاخر البربر : ص 8 ـ ابن خلدون : العبر ج 7 ص 57

(3) اختلف في اسم هذا الزعيم الادريسي ، فتارة تذكره المصادر بالحسن ابن قنون وأخرى بكنون وأحيانا بجنون ، والحقيقة كما يرويها العالم المغربي الكبير عبد الله بن جنون ان الاسم يكتب بكاف عليها ثلاث نقاط وتعرف بالجاف وتنطق جيم باللهجة المصرية اى بدون تعطين جنون .

(4) ابن ابي زرع : المصدر السابق ، ص 60 ، السلاوى : المصدر السابق ج 1 ص 87 .

(5) مفاخر البربر ص 8 .

وأمام هذه الاحداث الخطيرة التي ادت الى تقلص النفوذ الاموى في بلاد المغرب وخروج بعض الثغور الهامة من ايديهم ، رأى الحكم انه من الضرورى ان يحافظ على أمن دولته وسلامتها وذلك ، بالاسراع في معالجة الموقف باستئصال شوكة الادارسة في هذه الناحية ، وخرج بقراره هذا عن السياسة التقليدية المتسترة وراء القبائل المغربية ، الى سياسة واضحة تقوم على التدخل المباشر في شؤون العدوة المغربية ، للابقاء على نفوذه فيها واتخاذها خطا دفاعيا امامياً للاندلس من ناحية الجنوب .

ولم يتوان الحكم في تعبئة جيوشه واساطيله ، استعدادا لعبور المضيق ، وصبغ تدخله العسكري السافر هذا ، بالصبغة الدينية ، حيث تظاهر بمظهر حامى الاسلام والسنة النبوية من غي الشيعة المارقين حسب قوله (1) .

ففي شهر رمضان سنة 361هـ / 971م دعا الحكم القائد الوزير «محمد بن القاسم بن طملس» وعهد اليه بقيادة الجيش والخروج به الى مدينة «سبتة» بأرض العدوة لمقارعة الادارسة هناك ، وأوصاه بالتزام آداب الحروب ، والاخذ بالعفو والصفح عن الرعية ، الا أنه في الوقت نفسه ، حثه على بذل جهوده في مغاورة الثائر الادريسي ومنازلته ، وزوّده بالاموال والخلع (2) .

ركب القائد الاندلسي البحر من ميناء الجزيرة الخضراء في النصف الأخير من شهر شوال سنة 361هـ / 971م ، الى مدينة سبتة ، وفي الوقت ذاته ، وصل اليها قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس بالاسطول ، وبذلك تكاملت وتكاتفت الجيوش والأساطيل بهذه المدينة المغربية ، ومنها بدا الهجوم معاً براً وبحرا ، فاتجه محمد بن القاسم الى مدينة «تطوان» فدخلها دون مقاومة ، اذ وجدها خالية من حاميتها ، ثم عاد نحو الغرب الى مدينة «طنجة» ليساعد عبد الرحمن بن رماحس ، الذي سبقه اليها باسطوله (3) ، وحاصر بها الامير الادريسي «الحسن بن جنون» الذي أخذ يشد من عزم أهلها الا أنه لم يستطع مقاومة الحصار ، فاضطر الى الفرار تحت وابل من

---

(1) ابن حيان : المقتبس ، ص 111 ـ 112

(2) ابن حيان : المصدر السابق ص 80

(3) نفس المصدر ص 81 ـ ابن عذارى : البيان ج 2 ص 245 .

النبال ، مع بعض أصحابه وخاصته ولايلوى على أحد دون ان يأخذ من الاموال والاخبية شيئا حيث تركها جميعا غنيمة للجيش والاسطول الاندلسيين (1) .

ولما شاهد أهل المدينة فرار زعيمهم الادريسي استسلموا بمدينتهم لقائد الأسطول ، الأندلسي وخرج شيخهم ابن الفاضل مع أبنائه وجماعة من وجوه أهل طنجة الى ابن رماحس يطلبون منه الامان وهم ينادون .

الطاعة لله ولأمير المؤمنين الحكم المستنصر (2) فاعطاهم أياه ودخل ابن رماحس بعد ذلك المدينة دخول المنتصر في شوال سنة 61 هـ / 971 م (3) .

وانفذ ابن رماحس كتابا بهذه المناسبة الى الحكم مع فحلون بن هذيل ومسعود بن محمد صاحبي البريد ، فسر لهذا الإنتصار وكافأ كل واحد منهما بمائة دينار دراهم وغمرهما بخلعه (4) .

أما القائد محمد بن القاسم بن طملس ، فقد تعقب فلول الحسن في الجبال الوعرة التي تعلق بها ، ودخل معه في معركة عنيفة ، استطاع القائد الاندلسي خلالها ان يلحق الهزيمة بالادارسة ، ولم ينقذ «ابن جنون» منها الا سرعة جواده ، وخفة حمله ، ثم عرج «ابن طملس» في طريقه على مدينة «دلول» واحتلها دون عناء كبير (5) ، ومنها توجه نحو ساحل المحيط ، الى مدينة «أصيلا» ، ليؤدب أهلها الذين نقضوا طاعة الامويين في الاندلس ، فدخلها واعاد ولاءهم للحكم المستنصر ، ووجد في مسجدها منبرا جديدا مرسوما باسم الشيعي المعز لدين الله الفاطمي فاحرقه ، بعد أن خلع من اعلاه اللوح الذي يحمل اسم صاحب افريقية وارسله مع كتاب الفتح الى قرطبة (6) .

ومما تجدر الاشارة اليه هو أنه رغم الانتصارات العسكرية العديدة التي احرزها الجيش الاندلسي على الادارسة في المغرب ، الا أنه لم يستطع القضاء عليهم ، حيث

---

(1) ابن حيان نفس المصدر السابق ص 89 ـ ابن عذاري : المصدر السابق ج 2 ص 245 .

(2) ابن حيان : المصدر السابق ص 89 ـ ابن عذارى : المصدر السابق ج 2 ص 245

(3) ابن حيان : المصدر السابق ص 89 ـ 90 ـ ابن عذارى : المصدر السابق ج 2 ص 245 .

(4) ابن حيان : المصدر السابق ص 90

(5) ابن حيان : المصدر السابق ص 90 ـ ابن عذارى البيان ج 2 ص 246 .

(6) ابن حيان : المصدر السابق ص 90 ـ 91 ـ ابن عذارى : المصدر السابق ج 2 ص 246

ان هذه الانتصارات لم تكن سهلة ميسورة ، فقد استنزفت من حكومة قرطبة الكثير من الوقت والجهد والاموال والانفس ، التي افاض في شرحها ابن حيان بقوله : «... فقاد خيول الاندلس اليهم ، وربط أكابر قواده بثغرهم وغطى البحر بينه وبينهم بأساطيل الاموال ، والاسلحة والعدد والاطعمة التي أفرغها على مماريسهم ، وتحويل المستمالين من أهل بلدهم عليهم ، حتى قهرهم ...» (1) .

وأشار في مكان آخر أنه في صدر ذى الحجة من سنة 361هـ / 971م سير الحكم المستنصر الى القائد محمد بن القاسم بن طملس بالمغرب مع صاحب الرسائل والبريد ، الاموال اللازمة لتغطية نفقات الجيش والحروب الدائرة مع الادارسة (2) .

وظلت الامدادات المادية والعسكرية ترد على المغرب من الاندلس كل حين ، فابن حيان يشير الى ان الحكم دعا كل من القائد قيصر ، وسعد الجزيرى ورشيق من وجوه موالى أبيه عبد الرحمن ، واسماعيل بن عبد الرحمن بن الشيخ ، وعبد الرحمن بن يوسف بن ارمطيل ، وعبد الرحمن بن أبي جوشن ، وأمرهم بالتأهب للغزاة ، في الأسطولين المجهزين ، في ثغري المرية واشبيلية وخلع عليهم كثيرا من الخلع وأجزل عليهم الصلات الوافرة ، وزودهم بالأموال والمدد وانفذهم الى المغرب (3) .

كما وجه في صدر شوال من سنة 362 هـ /972 م ، ثقته محمد بن عبد الله بن أبي عامر الى المغرب حاملا معه الأموال والحلي والخلع لتوزيعها على المغاربة الذين استمالت نفوسهم الى بني أمية بالاندلس وولاه في نفس الوقت قضاء القضاة بالمغرب ، فضلا عن المناصب التي يتقلدها مثل خطتي الشرطة الوسطى والعليا والمواريث وقضاء كورة اشبيلية (4) ، هذه امثلة أوردتها على سبيل المثال لا الحصر تبين مدى النزيف الاقتصادى الذي كلف الدولة الأموية في حربها الافريقية ضد الادارسة .

أما « الحسن بن جنون » فإنه لم يستسلم لهذه الهزائم ، بل أخذ يجمع شمله ويوحد صفوفه من جديد ، ثم باغت الجيش الاندلسي على حين غرة في مكان يعرف بفحص « مهران » باحواز طنجة ، وأنزل به هزيمة ساحقة ، وقتل القائد الأندلسي ، محمد بن

---

(1) ابن حيان : المصدر السابق ص 191 .

(2) ابن حيان : المقتبس ص 91

(3) إبن حيان : المقتبس ص 81

(4) نفس المصدر ص 123

القاسم بن طملس ونحوالف وخمسمائة من جنده ، في آخر ربيع الاول سنة 362 هـ / 972 م . ولجأ الفل الأندلسي الى مدينة سبتة مستغيثا بالخليفة الحكم المستنصر بالله (1) :

ثارت ثائرة الخليفة المستنصر بالله لهزيمة جيشه ، ومقتل وزيره وقائده فصمم بكل جدية على محو آثار هذه الهزيمة ، واسترداد كرامته ، وكرامة جيشه ونفوذه في المغرب ، ويظهر ذلك واضحا جليا من خلا ل تصرفاته وتصريحاته ، ومراسلاته الكثيرة التي بعث بها الى قواده في الشمال الافريقي .

ومن حسن الطالع ، فإن المؤرخ القرطبي ابو مروان بن حيان ، نقلا عن المؤرخ المعاصر عيسى الرازي ، أورد معظم تصريحاته ورسائله هذه في كتابه « المقتبس » ، وكأنها أشبه بجريدة يومية تسجل الاحداث أولا بأول (2).

فقد كتب المستنصر الى قواده المرابطين في مدينة طنجة أمثال : عبد الرحمن بن رماحس ، وسعد ، وقيصر ، وكذلك الى قواده في مدينة « أصيلا » أمثال : عبد الرحمن بن ارمطيل ، ورشيق بن عبد الرحمن يأمرهم بعدم التفاوض مع « الحسن بن جنون » ويحثهم على مقاتلته ، ومقاتلة اعوانه دون هوادة .

كما أنه لم يغفل توصيتهم بألاّ يستعملوا العنف مع القبائل المغربية المنضوية تحت نفوذ الادارسة ، بل من الأفضل أن يسلكوا سياسة اللين معهم واستمالتهم الى صفوفهم وذلك بانفاذ دعاة مهرة اليهم يقيمون بين ظهرانيهم حتى تطمئن نفوسهم الى الدعوة الاموية .

وأمرهم بالاكثار من تجنيد الاتباع وحملة الاخبار ، وبث الجواسيس واذكاء العيون في كل مكان حول الأدارسة لتسقط أخبارهم وتحركاتهم أولا بأول . ولم ينس أن يذكرهم بالتكاثف والتعاون جميعا ، من أجل تقليم أظافر الادارسة واخضاعهم الى نفوذه لاعادة سلطانه على بلاد المغرب (3) .

---

(1) نفس المصدر ، ص 96 ـ مفاخر البربر ، ص 9 ـ ابن عذارى : البيان ج 2 ص 246 ابن خلدون : ج 7 ص 38 ، ج 6 ص 451 روض القرطاس ، ص 61/60 ـ ابن الخطيب : اعمال الاعلام القسم الثالث ، ص 221 .

(2) د. أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ص 231

(3) راجع كتاب إبن حيان : المقتبس ، ص 97 ـ 98 ـ 99 ـ 102 .

ولم يكتف الحكم بالجيوش والأساطيل المرابطة في الثغور المغربية فحسب بل أرسل جيوشا واساطيل أخرى لمساعدة قواته المقلولة هناك ، وان دل هذا على شيء فإنما يدل على مدى الاهتمام البالغ الذي يوليه العاهل الأندلسي للحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ، واصراره على التحكم فيه وقد لاحظ المؤرخ القرطبي ابن حيان ذلك بقوله : « .. استظهارا على ضبط المجاز عليه واليه ، واستطالة بفضل قوته واشتداد سلطانه .. » (1) .

ويبدو ان الخليفة الحكم المستنصر بالله قد رمى بكل ثقله وامكانياته المادية والبشرية من أجل ذلك ، فالنصوص التاريخية ذكرت بأنه عطل في سبيل حروبه الافريقية ، معظم جيوشه المرابطة في الثغور الشمالية المتاخمة لحدود الممالك المسيحية الاسبانية ، وجردها من كبار القواد ، على الرغم من المخاطر التي تهدد دولته من هناك ، وبعث بهم الى العدوة المغربية (2) .

خروج القائد غالب بن عبد الرحمن لتدعيم القوات الأندلسية في بلاد المغرب :

استدعى الحكم القائد الوزير « غالب بن عبد الرحمن » من مدينة سالم Medinaceli (3) ، فوافاه بقرطبة بمن معه من مرابطي هذا الثغر ، في جمادى الآخرة سنة 362هـ/972 م ، وضم اليه جيشا كبيرا وأمده بالأموال وأمره بالمسير نحو المغرب لقتال الادارسة ، واستنزالهم من معاقلهم ، وقال له عند وداعه : « سر سير من لا اذن له في الرجوع حيا الا منصورا أو ميتا ، فعذورا ، وابسط يدك في الانفاق ، فإن أردت نظمت للطريق بيننا قنطار مال » (4) .

---

(1) نفس المصدر : ص 190

د . أحمد مختار العبادى : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص 231 .

(2) مفاخر البربر ، ص 8 ـ 9 .

(3) مدينة سالم تقع شمال مدريد بنحو 153 ك . م في الطريق الرابط بين مدريد وسرقسطه ، وهي الآن من أعمال مقاطعة سورية وسميت بسالم نسبة الى سالم ورعمال المصمودي الذي يحتمل ان يكون من قادة الرعيل الأول من الفاتحين . والمدينة هي قاعدة للثغر الأوسط الى جانب طليطلة قاعدة الثغر الادنى وسرقسطة قاعدة الثغر الأعلى . راجع د . أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص 223/222 .

(4) ابن حيان : المصدر السابق ص 108 .

فخرج غالب بالعدد والعدة وآلات الحرب محملا بالالطاف والخلع والكسوة الفاخرة بالاضافة الى الاموال التي تقدر بعشرة آلاف دينار لصلات الحلفاء من وجوه القبائل المغربية المنحرفين عن طاعة الادارسة (1) وأبحر من ميناء الجزيرة الخضراء يريد مدينة « طنجة » في رمضان سنة 362 هـ /973 م لكن صادفته عاصفة قوية اضطرته الى العودة من حيث أتى ، فبغي هناك الى ان تحسن الجو وهدأ البحر ، فاجتاز المضيق مرة أخرى الى طنجة .

ولما انتهى خبر قدومه الى زعماء القبائل المغربية ، بادروا بالكتابة اليه مجددين الولاء والطاعة فكتب اليه كل من : عبد الكريم بن يحيى ، ومحمد بن يحيى الصنهاجي ، صاحبي مدينة « فاس » واسماعيل بن البورى ، ويحيى أخيه زعيمي مكناسة وغيرهما من وجوه أهل العدوة (2) .

تقدم غالب نحو الادارسة ، وعلى رأسهم زعيمهم « الحسن بن جنون » الذي فر من مدينة « البصرة » الى معقله الشاهق : بقلعة النسر : القريب من مدينة سبتة بحريمه وجميع أمواله وذخائره (3) . وفي نفس الوقت تحرك قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس باسطوله من مدينة طنجة الى مدينة « أصيلا » كي يتعاون مع الاسطول الاندلسي المرابط هناك ، وبالتالي يكون بالقرب من القائد الاعلى للجيوش الأندلسية في المغرب الوزير « غالب بن عبد الرحمن » فسر الخليفة المستنصر بالله لهذه الحركة . وبارك صواب التدبير في اجتماع الاسطولين (4) .

أخذ غالب يطارد الادارسة في معاقلهم ، ويتتبعهم من حصن الى آخر في الجبال الوعرة ، ونجح في ذلك أيما نجاح ، حيث استطاع ان يحاصرهم في جبل « الكرم » وجبل « مهران » ، وحاول ان يستنزلهم الى السهول والمنبسطات ليتمكن من الالتحام بهم .

ورغم تعلقهم بالاوعار فان غالبا ناوشهم ، وقتل منهم الكثير واحتز عددا من رؤوس حماتهم ، وكان ذلك في شهر شوال سنة 362 هـ /972 م ، كما استطاع أن يستعين

---

(1) ابن حيان : المقتبس ، ص 108 .

(2) إبن حيان : المصدر السابق ص 108

(3) روض القرطاس ، ص 61 .

(4) إبن حيان : المصدر السابق ، ص 116

بسكان حصن « الكرم » من بربر كتامة ، بعد ان استمالهم اليه ، ونجح في تأليبهم على الزعيم الادريسي الثائر ، ثم مدهم بالفرسان والرجالة والبنود والطبول وغيرهم من الاسلحة، فثاروا على الادارسة بهذا الحصن .

فلما رأى ذلك زعيمهم لم يتمالك وركب جواده وهرب مع خاصته وصهره صاحب مدينة « البصرة » محمد بن جنون وعلي بن خلوف (1) وغيرهما من حاشيته الى قلعة النسر. فاحتوى الجيش الاندلسي على كل ما كان به من امتعة وابنية ومواعين واقوات واطعمة واسلحة وغير ذلك ، فاستعانوا بها .

ووجدوا ايضا في سجن هذا الحصن عددا كبيرا من السجناء من اصحاب الادارسة ومن وجوه القبائل المغربية الذين ارتهنهم الحسن بن جنون واوثقهم بالحديد فسرحهم غالب واستعان بهم (2) .

وردّ الخليفة الحكم عن كتاب غالب الذي وجهه اليه بمناسبة دخوله لحصن « الكرم» يحمد مقامه وينوه بأعماله ويشكر فعله ، ويذكره بأنه جاد في حربة مع الادارسة ومصمم على قطع دابرهم من بلاد المغرب مهما كلفه ذلك من نزيف اقتصادي وبشري ، ويظهر ذلك من خلال الرسالة التي وجهها الى القائد الأعلى لجيوشه في المغرب « غالب بن عبد الرحمن » إذ يقول له : « .. وقد كفاك الله الاشتغال بالتفكير في مال أو طعام ، فرادها موصولة بك متلاحقة لديك ... حتى يفتح الله في الظلام القاطع بعد له ، ولو أتى ذلك على بيوت الأموال المترعة وأهراء الاندلس المختصة ، فلو لم يبق منها غير ما في الاهراء الخاصة بقرطبة لاحتمل اليك جميع ما فيها .. ولا ستسهل أمير المؤمنين التحرك الى الجزيرة واتخاذها وطنا مستقرا ، ولأجاز لمجاهدة هذا الفاسق (يقصد الحسن بن جنون) كل جندي في ديوانه مع كل متصرف في مملكته .. (3).

وبعث له بالأموال كصلات للمنضمين اليه من أصحاب « الحسن بن جنون » وتوزيعها عليهم حسب مكانتهم ورتبهم وقرن بها فاخر الكسوة وعددا كبيرا من السيوف المحلاة (4) .

---

(1) إبن حيان : المقتبس ، ص 134 ـ أما إبن عذارى فيذكر بأن علي بن خلوف هو صهره وصاحب مدينة البصرة .

(2) إبن حيان : المصدر السابق ، ص 135

(3) إبن حيان : المقتبس ص 130 ـ 131

(4) إبن عذارى : البيان ج 2 ص 247

لم يقف الحكم عند الجيوش والأساطيل الموجهة الى المغرب ، بل استدعى أيضا القائد الوزير صاحب الثغر الأعلى « يحي بن محمد بن هاشم التجيبي » ، من مدينة سرقسطة في ذى الحجة سنة 362 هـ /973 م ، بمن معه من رجال الثغر ، ثم أضاف اليه قوة كبيرة أخرى من المقاتلين الاندلسيين ، وأمره بالسير نحو المغرب لمؤازرة غالب هناك ، وأرفق معه أخوته يوسف ومحمداً وهاشماً وهديلا وبني عمه التجيبيين (1) .

وزوده بالأموال والعتاد ، وهدايا كثيرة من الكسوة الفاخرة والسيوف المحلة لتقديمها الى حلفاء بني أمية في المغرب والمنحاشين الى دعوتهم من اصحاب الادارسة (2) .

ووجه أيضا في نفس الوقت بني خزر الذين قدموا الى قرطبة رفقة يحيى بن علي الأندلسي الى المغرب للحاق ببني عمهم الذين انضموا الى عسكر غالب بن عبد الرحمن في حربه ضد الادارسة العلويين (3) .

ثم أوصل اليه يحيى بن علي الاندلسي ، وقعد له قعودا بهيا ثم أمره هو الآخر بالتأهب للخروج الى بلاد المغرب برجاله القادمين معه من العدوة لتعضيد الجيش الاندلسى ومساعدته هناك وغمره بالخلع والمال فاجتاز يحيى المضيق حيث انضم الى غالب بن عبد الرحمن (4) .

وهكذا اجتمعت لغالب هذه الحشود الهائلة من العساكر الاندلسية والمغربية فتقدم بهم نحو مدينة « البصرة » بعد أن بث العيون والجواسيس حولها ، وأخرج الأموال الى أهلها من كتامة وهي السياسة التي اوصاه بها الحكم فثاروا على صاحبها الادريسي وقتلوا خاله ، محمد بن عبد السلام واحتزوا رأسه ، وبعثوا الى غالب يستقدمونه ، فتقدم اليهم ، وابقى رفيقه القائد يحيى بن محمد التجيبى في حصن الكرم يقف على بنائه ، وأقام بها مدة ثم ثقفها غالب وشكها بالرجال والجند واستعمل عليها « عبد الرحمن بن محمد بن الليث » ، ثم انتقل منها لمتابعة فلول الادارسة وكان ذلك سنة 363 هـ /973 م (5) .

---

(1) إبن حيان : المصدر السابق ص 125 ـ مفاخر البربر ص 9 ـ ابن عذارى : البيان جـ 2 ص 247 .

(2) ابن حيان : المصدر السابق ، ص 129

(3) ابن حيان : المصدر السابق ص 124 ـ 125

(4) نفس المصدر ص 130

(5) ابن حيان : المقتبس ص 144/143 ـ ابن عذارى : البيان جـ 2 ص 147 .

وبعث بذلك الى مولاه الحكم بقرطبة مع فتاه « قند » يخبره بما تم له من فتح ، وبرفقة كتابه هذا خطاب بعث به أهل مدينة البصرة ومعهما رأس ابن عبد السلام فاستقبل الخليفة قندا استقبالا رسميا وشعبيا في قرطبة وخرج الناس لمشاهدة رأس الادريسي ثم قعد له الخليفة يسأله عن اخبار المغرب وأحوال جنده (1).

ولم يلبث غالب أن شدَّد الحصار على الادارسة فوزع الأموال على رؤساء القبائل المغربية ولا سيما رؤساء غمارة ومن معهم من الجند ، ووعدهم بالجاه والمال ورفعه المنزلة ان هم تخلوا عن مساندة الحسن بن جنون فاستجابوا له ، واخذ هؤلاء المغاربة يتفرقون من حول الزعيم الادريسي وينضمون الى صفوف الجيش الاندلسي حتى لم يبق معه الا خاصته ورجاله حسب قول ابن ابي زرع (2) .

ولم يكتف الخليفة الحكم المستنصر بالله بكل هذه القوات والاساطيل التي وجهها الى غريمه الادريسي « الحسن بن جنون » بل ارسل ايضا الشعراء والقضاة ، والامناء وجعل مهمتهم معرفة احوال الجيوش والرعية في المغرب أو بعبارة اوضح القيام بمهمة الاستعلام والاستطلاع ومن بين هؤلاء المبعوثين ، محمد بن أحمد بن مفرج قاضي « ريه » وأبو عبيد القاسم بن خلف الجبيري الفقيه فقضيا هناك ردحا من الزمن ثم عادا الى قرطبة (3) ، وأرسل أيضا كلا من القاضي عبد الملك بن منذر بن سعيد ، والخازن أحمد بن محمد الكلبي الى مدينة « الفرج » ، ليقفا على حقيقة الشكوى التي قدمها أهل هذه المدينة ضد القائد رشيق بن عبد الرحمن (4) .

كما أنفذ في شعبان سنة 362 هـ /972 م ، أحد ثقافه صاحب الشرطة الوسطى والمواريث ، قاضي كورة اشبيلية ، محمد بن عبد الله بن أبي عامر ، وكان محمد هذا حسن الدراية بالمسائل المالية ، واسع الخبرة بشئون الادارة حتى لقب بفتى الدولة (5) ، واصطحب معه صاحب الشرطة الصغرى قاضي الثغر الأعلى محمد بن على بن أبي

---

(1) ابن حيان : المصدر السابق ، ص 143 .

(2) روض القرطاس ص 61 ـ ابن خلدون : العبر ج 2 ص 452

(3) ابن حيان : المقتبس ، ص 91

(4) نفس المصدر ، ص 105

(5) ابن حيان : المصدر السابق ، ص 106 راجع أيضا كتاب د . خالد الحوفي تاريخ العرب في إسبانيا عصر المنصور ، ص 23 بيروت 1966 .

الحسين ، والخازن أحمد بن محمد الكلبي الى مدينة « أصيلا » بالمغرب الاقصى ، أمناء ومراقبين للقواد (1) .

وكذلك بعث الشاعر الجزائري محمد بن حسين التميمي المعروف بالطبني (نسبة الى مدينة طبنة جنوب شرق جمهورية الجزائر) الى المغرب ، ليرافق القائد الوزير غالب بن عبد الرحمن ويستعين به في شؤونه ومؤازرته في تدبيره باعتباره خبيرا بأحوال المنطقة وبطبائع أهلها وولوجه في شؤونهم (2) .

الوفود والسفارات المغربية الى قرطبة :

نجح الحكم أيما نجاح في سياسته المغربية إذ ان المصادر تتحدث باسهاب عن الوفود المغربية الكثيرة ، التي حلت ببلاط الخليفة الحكم المستنصر بالله معلنة الطاعة والولاء ، ولوحاولت ان اتطرق الى ذكر جميع الوفود والسفارات المغربية التي وردت على قرطبة ، لضاق بنا المجال ولا ينتابنا الملل من ذلك ، ولهذا ساقتصر بالاشارة الى بعضها فقط على سبيل المثال لا الحصر.

ففي غرة جمادي الآخرة سنة 362 هـ /972م ، قدم وفد على قرطبة يمثل قبيلة مصمودة بلغ عدد افراده نحو سبعين رجل ، كانوا قد فروا من صفوف الادارسة العلويين ولجأوا الى القائد الأندلسي عبد الرحمن بن رماحس بطنجة راغبين في طاعة صاحب قرطبة فلم يلبث ابن رماحس ان ارسلهم الى قرطبة حيث استقبلهم الخليفة الحكم ، وقبل انابتهم واوسع عليهم وانزلهم بمنية نجدة .

كما وفد على الحكم المستنصر في نفس الوقت رسول « جنون ادريس » صاحب مدينة الاندلسيين (3) ، ورسول عبد الكريم صاحب مدينة القرويين ، يرغبان الدخول في طاعة صاحب قرطبة ، والقيام بدعوته فكرّم الحكم الرسولين (4) .

---

(1) ابن حيان : المصدر السابق ، ص 106

(2) ابن حيان : المقتبس ، ص 108 ـ 19

(3) نفس المصدر ، ص 96 ـ ابن عذارى : البيان ج 2 ص 246

(4) ابن عذارى : المصدر السابق ج 2 ص 247 ـ أما ابن حيان فيذكر بأنه صاحب مدينة الاقلام (المقتبس ، ص 103) .

وفي آخر شعبان سنة 362 هـ /972 م قدم على الحكم ، القاسم بن يحيى بن القاسم بن ابراهيم بن محمد المسمى « جنون » ، وهو ابن أخي الحسن بن جنون ، قادما من المغرب خارجا عن طاعة عمه جانحا الى طاعة المستنصر بالله ، فاكرمه الخليفة واوسع عليه الجراية ، وانزله في دار ابن أمية بقرطبة (1) .

وفي شهر رمضان من نفس السنة عهد الحكم الى الوزراء بالقعود في بيتهم ، لاستقبال رؤساء القبائل المغربية القادمين من المغرب ومشاهدة توزيع الصلات والكسى عليهم ، التي أمر بها الخليفة المستنصر بالله ، وكان يتقدم هؤلاء المغاربة أبو العيش بن أيوب بن بلال رئيس كتامة ، فاجزل الخليفة عطاءه وخلع عليه الخلع الرفيعة ، ثم دعى من كان معه من الرؤساء ، فقدمت اليهم صلاتهم ، وخلعهم ثم لاصحابهم وأعوانهم كل حسب رتبته ومكانته وبوّأهم رئاسة قومهم وأمرهم بالانصراف الى بلدهم (2) .

وفي صفر سنة 363 هـ /973 م ، جلس الخليفة الحكم المستنصر بالله على سريره بقصر الزهراء ، محفوفا بالحجاب ، والوزراء وكبار رجال الدولة ومختلف طبقات أهل الخدمة ، لاستقبال الادارسة الوافدين عليه من المغرب امثال : عبد الرحمن بن محمد بن أبي العيش ، وحسين بن يحيى بن حسن بن ابراهيم وحسن بن جنون الحسنيين وبعض رجالهم ، ثم تلاهم بعد ذلك شيوخ مدينة « البصرة » ، وبعض علمائها وفقهائها ، فاستمع الخليفة اليهم وسر لحديثهم ، وأوسع عليهم بالخلع والصلات (3) .

وكذلك دخل قرطبة « جنون بن عيسى الحسني » ، فاكرم الخليفة الحكم مثواه واحتفى به حفاوة بالغة ، ووصلت أيضا الى قرطبة في الوقت نفسه الخيل التي بعث بها صاحب عدوة القرويين بفاس ، وعدتها نحو خمسة وثلاثون فرسا هدية للخليفة (4) .

واستمرت الوفود والرسل تتقاطر كالسيول على بلاط قرطبة دونما انقطاع ، من المغرب سواء من الادارسة العلويين أو رؤساء القبائل المغربية ، حاملة له الطاعة والولاء والهدايا الكثيرة . وكان الخليفة الحكم كريما سخيا معهم ، يقعد بنفسه لاستقبالهم

---

(1) ابن حيان : المقتبس ، ص 103 ـ ابن عذارى : البيان ، ج 2 ص 247 .
(2) نفس المصدر ، ص 109
(3) نفس المصدر ، ص 114
(4) ابن حيان: المقتبس ، ص 146

وتوديعهم ولا يرفض لهم طلبا . وعلى ما يبدو فان الخليفة المستنصر قد نجح في كسب ود المغاربة بسياسته هذه ، حيث استجاب له الكثير من أمرائهم وانحاشوا الى دعوته ، وفي ذلك يقول ابن حيان : « ... قد صار الى الطاعة (أي طاعة الحكم) جميع أمراء المغرب وعامة قبائل البربر ، فليس فيه منابذ غير الشقي الخائن حسن بن حنون ... » (1).

وبهذه السياسة الذكية الحازمة ضيق الخليفة الحكم المستنصر بالله الحصار على الادارسة ومن ثم أعطى أوامره الى قواد جيوشه واساطيله في المغرب للقيام بحملة جماعية واسعة النطاق على حصن « الحسن بن جنون » المعروف « بحجر النسر » فاشتد الأمر عليه وضاقت أحواله .

إستسلام الحسن بن جنون الادريسي :

ولما أشتد الحصار عليه وطال ، فر من حوله الكثير من اصحابه وأعوانه وخدمه ، حتى ابنه المنصور وأخته وأمها اضطروا للتّخلّي عنه واللّجوء الى القائد الاندلسي غالب بن عبد الرحمن عند ذلك أجبر الثائر الادريسي ، على الاستسلام بمن تبقى معه ، بعد أن طلب الامان لنفسه ولاتباعه ، وكان قد وجه الى القائد الاندلسي ابنه ، علياً بن حسن لهذا الغرض (2) .

دخل غالب بن عبد الرحمن قلعة « حجر النسر » وصلى في مسجدها صلاة الجمعة مع الأمير الادريسي ، ودُعي للخليفة الحكم على منبره في أواخر جمادى الآخرة سنة 363 هـ / مارس 973 م (3) .

وهكذا احتل غالب القلعة الادريسية بعد حروب طويلة ، ومعارك مريرة استنزل بعدها جميع العلويين من معاقلهم واخرجهم منها ولم يترك أحدا بها ، ثم سار نحو مدينة « فاس » فملكها ، وثبت عبد الكريم على عدوة الاندلسيين ومحمد بن حسن على عدوة القرويين ، وأخذ منهما الرهائن مع كتابي بيعتهما للخليفة ، وبعث بهم الى قرطبة (4) .

---

(1) ابن حيان : المقتبس ، ص 146 ؛ ابن عذارى : البيان ج 2 ص 248

(2) نفس المصدر ، ص 148

(3) نفس المصدر ، ص 148

(4) نفس المصدر ، ص 150 ـ 151

وسكنت بذلك ريح الأدارسة ، الذين طالما ناوءوا النفوذ الأموي في المغرب وقاوموه بشدة منذ قيام دولتهم في المغرب الاقصى ، سنة 172 هـ / 788 م .

وفي المحرم سنة 364 هـ / 974 م ، عاد القائد غالب شيخ الحروب وفارس الخطوب الى الاندلس ومعه « الحسن بن جنون »وأقربائه من الامراء الادارسة ، حافّين بشيخهم وكبيرهم « أحمد بن عيسى » المشهور « بجنون » صاحب مدينة « الاقلام » وما ولاها بارض العدوة (1) .

وكان يوم دخولهم الى مدينة الزهراء أحفل أيام الدولة لما ظهر فيه من فخامة الملك وكثرة الجمع ، حيث أمر الحكم الناس بالخروج الى لقائهم ، وركب هو في جمع غفير من وجوه رجال الدولة ، فتلقاهم وعفى عنهم ، وأوسع على الحسن بالعطايا ، ورتّب نحوسبعمائة فارس من انجاد المغاربة في ديوان جنده (2) .

والجدير بالملاحظة هنا هوأن عاهل الاندلس قد وفق تماما في اختيار الوقت المناسب ، والظروف المواتية لعبور جيوشه الى بلاد المغرب ، ففي الوقت الذي كانت فيه الجيوش والاساطيل الاندلسية تعبر المضيق ، كان المعز لدين الله الفاطمي متوجها بجيوشه واساطيله الى مقره الجديد بمصر .

وكان خليفته في افريقية والمغرب يوسف بن بلكين منشغلا في هذه الآونة بتوطيد اركان دولته الناشئة ، بإخماد الفتن ، والثورات التي نشبت ضده في مدينة القيروان وهذا مما لاشك فيه ، قد ساعد مهمة القوات الاندلسية وفتح المجال أمامها لنشر الدعوة الأموية في المغرب الأقصى . دون أن تتعرض لها صنهاجة . وقد لاحظ ذلك صاحب كتاب مفاخر البربر بقوله : « ... فنزل قصر معد بالمنصورية ، وتمت له المملكة (أي بلكين) تعجل بالخروج نحو المغرب في شعبان من هذه السنة (362 هـ) وقد عظم عسكره ، وبعد صيته ، فقضى الله ان اضطربت بعده القيروان .. فتوقف بلكين من أجلها الى أن جلت عنه العماية مع انقضاء سنة 364 هـ /974 م » (3).

---

(1) ابن حيان : المقتبس ، ص 174 ـ ابن أبي زرع : روض القرطاس ، ص 61 ـ 62 ـ ابن خلدون : العبر ، ج 6 ص 452 .

(2) ابن حيان : المصدر السابق ، ص 194 ـ ابن عذارى : البيان ، ج 2 ص 248

(3) مفاخر البربر ، ص 9 ـ ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص 62 ـ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 6 ص 453 ـ ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، القسم الثالث ، ص 222 ـ وحول حفاوة الاستقبال ومراسيمه انظر كتاب ابن حيان : المقتبس ، ص 194 وما يليها .

استقطاب الحكم المستنصر بالله للمغاربة لدعم قواته :

ومن الملاحظ أيضا أن الخليفة الحكم المستنصر بالله قد شجع هجرات القبائل المغربية من بلاد المغرب الى بلاد الاندلس ، دعما لقواته وعملا بسياسة حفظ التوازن في المنطقة ، والحق رجالهم بجنده ، وبوّأهم بداره وأدخلهم في خدمته ، ولا سيما منها الفرق المغربية التي قدمت أخيرا الى الاندلس مع آل حمدون الأندلسي ، وبني حسن الادارسة العلويين ، ورجال البرازلة سكان جبل سالات وما اليه من اعمال المسيلة (1) .

برز هؤلاء البرازلة ، بعد المعركة التي دارت بين صنهاجة من جهة ، وبين زناتة وجعفر بن علي سنة 360 هـ / من جهة أخرى ، وكان لهم اليد الطولى في مقتل زيري بن مناد ، لذلك استقدمهم الخليفة الحكم الى الاندلس ، ونظمهم في طبقات جنده ، لما اشتهروا به من شجاعة وبأس وركون للطاعة ، وتغاضى عن اختلافهم المذهبي إذ كان البرازلة يدينون بالمذهب الخارجي الاباضي النكاري ، رغم تعصبه لأهل السنة ومذهب مالك (2) .

هذا بالاضافة الى من لحق به من قبائل أخرى مثل زناتة وغيرها من القبائل المغربية المنحاشة الى طاعة بني أمية في الأندلس (3) .

وقد رفع الخليفة الحكم المستنصر بالله ، منزلة هؤلاء المغاربة ، الذين عبروا لخدمته في الاندلس ، وأصبحت فيهم رئاسة الجيوش وقيادة المعارك . ولما كانوا يتحلون به من بأس وشجاعة واقدام فاعجب بهم الحكم كثيرا ، لدرجة أنه كان يتسلى بمنظرهم الجميل ، عندما كان مريضا ، حيث كان يطل عليهم من قصبة دار الرخام ، ليستمتع بمشاهدة استعراضهم ، حينما كانوا يتحركون للعب بالخيول ، وكثيرا ما كان يعبر لمن حوله عن انطباعاته الحسنه تجاههم وإعجابه الشديد بهم بقوله : « ما أعجب انقيادها (أي الخيل) بهم » (4) ويردد دائما قول الشاعر المتنبي :

---

(1) مفاخر البربر ، ص 13 .

(2) ابن حيان : المقتبس ، ص 192 ـ ابن خلدون : العبر ، ج 7 ص 111

(3) ابن حيان : المصدر السابق ، ص 192

(4) ابن حيان : المقتبس ص 193 .

فكـأنما ولـــــدت قيامـا تحتهـم وكأنهم ولـدوا على صهواتهـــا(1)

وعندما اشتد المرض على الخليفة الحكم المستنصر بالله ، وشلت حركته انتقلت السلطة الى وزرائه وحاشيته ونسائه ، فاضطربت شؤون الدولة وطمع الاسبان في الشمال وكثر إعتداؤهم على الثغور الاسلامية المتاخمة لحدودهم وتطاولوا عليها .

عند ذلك رأي وزير الحكم وصاحبه جعفر بن عثمان المصحفي ضرورة استدعاء القائد يحي بن محمد التجيبي من المغرب ، ليسد به الثغور الأندلسية الشمالية (2) ، وأقام مكانه باسم الخليفة أميرين من أصل اندلسي هما : جعفر بن علي الأندلسي وأخيه يحيى لخبرتهما بشؤون المغرب وأهله من جهة ، ولشدة عداوتهما لبني زيري الصناهجة من جهة اخرى ، وخلع عليهم خلعا فاخره ، ودفع لهما اموالا وكسي كثيرة ، لتقديمها الى زعماء القبائل المغربية هناك وارفق معهما بعض رجالهما واتباعهما وانفذهما الى المغرب فوصلا الى قلعة النسر سنة 365 هـ /975 م ، حيث سلم لهما القائد يحيى بن محمد التجيبي مقاليد الأمور ، وقفل عائدا الى الاندلس ، ولم يلبث ان وجهه الخليفة لتوه الى مدينة سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى في نفس السنة اي سنة 365 هـ / 975 م .

وقد استطاع جعفر بن علي أن يضبط أمور المغرب ، وان ينجح في اكتساب زعماء القبائل المغربية ويدعم مركزه بهم وأهم هؤلاء بدو بن علي شيخ بني يفرن ، وزيرى وأخيه مقاتل بن عطية بن عبد الله المغراويين زعيمى زناتة ، وبني البورى رؤساء مكناسة ، وغيرهم من بني مرين ، وبني مروة (3) .

وتعاون هؤلاء جميعا في دفع هجمات « بلكين » زعيم صنهاجة المتكررة على أراضيهم وتمكنوا من تثبيت أقدام الأمويين في المغرب بقية أيام الحكم (4) .

كما لم يلبث الوزير جعفر بن عثمان المصحفي أن أقدم على عمل كان له عواقب وخيمة فيما بعد وذلك أنه قرر إخراج الادارسة من الأندلس ليتخلص منهم ومن نفقاتهم الثقيلة ، فإذن لهم بالرحيل الى بلاد المشرق بعد أن أخذ من زعيمهم « الحسن » العهود والمواثيق بعدم الذهاب الى بلاد المغرب ، ثم قدم لهم الأموال ، ليستعينوا بها على السفر ،

---

(1) ابن حيان : المقتبس ، ص 193 والبيت قصيدة يمدح فيها أبا أيوب أحمد بن عمران الانطاكي .

(2) مفاخر البربر . ص 13 .

(3) مفاخر البربر : ص 14

(4) نفس المصدر والصفحة .

واوكل لمن أخرجهم من ميناء المرية فعبروا البحر الى تونس ومنها الى مصر سنة 365 هـ وهناك استقبلهم الخليفة الفاطمي الخامس ، العزيز بالله بحفاوة بالغة واقرهم عنده ، وأكرمهم وأحسن اليهم ، ليحتفظ بهم كسلاح يمكن اشهاره في الوقت المناسب ضد أعدائه بني أمية وحلفائهم في المغرب (1) .

لم يكتف الحكم المستنصر بالله بالنشاط العسكري ، ضد الشيعة الفواطم في المغرب وحلفائهم بل اتخذ أيضا مظهراً آخر هو المظهر الثقافي فعمل على محاربة الدعوة الشيعية بواسطة العلماء الذين جندهم للدفاع عن آراء بني أمية السنية ومبادئهم ونشرها .

كما أن الحكم مد يده الى مصر ، وأخذ يكافيء فقهاء المالكية ويشجعهم بصلاته ، فقد بعث الى رئيس فقهاء المالكية الاندلسي الأصل أبي إسحاق محمد بن القاسم بن شعبان المعروف بابن القرطبي بمصر ، وابي عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي وغيرهما (2) مقتديا في ذلك بسياسة أبيه عبد الرحمن عندما أرسل الى هذا الفقيه نفسه عشرة آلاف دينار ليوزعها على فقهاء المالكية بمصر ، وقد كان رد الفعل من طرف الأخشيديين مماثلا ان اخرجوا مثل هذا المبلغ ووزعوه على شيوخ الشافعية (3) .

كما فتح الحكم ذراعيه لكل لاجيء سياسي هارب من الاضطهاد الشيعي الفاطمي سواء كان هؤلاء اللاجئين من بلاد المغرب أو من مصر ، ومن بين هؤلاء اللاجئين القادمين من مصر ، إبن الازرق الأموي الذي خرج من مصر ، فقبضت عليه الفواطم في إفريقية وسجنته بالمهدية ، ولعل الذي دفعهم الى ذلك هو شكهم في كونه جاسوسا أمويا ثم تمكن من الفرار ، ولجأ الى قرطبة حيث اكرمه الحكم ، وظل هنالك الى أن توفي سنة 385 هـ/995 م (4) .

ومنهم أيضا اسماعيل بن عبد الرحمن القرشي الذي رحل من مصر سنة 360 هـ / 970 م بعد أن استولى عليها جوهر الصقلي بسنتين ، واتجه الى حاضرة الأندلس مدينة قرطبة فحل من خليفتها محلا طيبا (5) .

---

(1) مفاخر البربر ، ص 15 ـ راجع أيضا : أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب ، ص 234 .

(2) ابن الأبار : الحلة السيراء ، ج 1 ص 201 .

(3) ابن الآبار : الحلة السيراء ج 1 ص 201 تعليق رقم (1) .

(4) د . محمود علي مكي : التشيع في الأندلس ص 32 .

(5) المقري : نفح الطيب ج 4 ص 69 .

وكذلك حكم بن محمد القيرواني القرشي (ت 370 / 980 م) الذي تردد كثيرا بين عاصمة الأندلس ومدينة القيروان ، ويبدو أن الحكم كان سخيا معه وبالغ في إكرامه ، لمشاركته في النشاط الدعائي ضد الشيعة من جهة ولانه تعرض لسجن المهدية بسبب مهاجمته للشيعة الفواطم من جهة أخرى (1) .

اعتنى الحكم المستنصر بالله أشد العناية بتشجيع حركة التأليف في الشؤون المغربية وخاصة ما يتعلق منها بإخبار الشيعة ومذهبها ، ولعل الحكم هو صاحب هذه السياسة التي أنفرد بها ، فقد كلف المؤرخ القيرواني محمد بن يوسف بوضع كتاب عن تاريخ المغرب ، ومسالكه وممالكه ، وحروبه ، والظاهر أن هذا العمل ليس الغرض منه خدمة العلم فقط بل ربما كان كذلك تمكينا للسياسة التقليدية التي جرت عليها الخلافة الاندلسية في الشمال الإفريقي (2) .

وقد ورد في بعض المصادر كيف ان عاهل الأندلس ، اغتنم فرصة وجود سفارة برغواطة في قرطبة ، وطلب من رئيسها ابى صالح زمور البرغواطي أن يؤلف له عن أخبار هذه القبيلة ونسبهما وديانتهما ، فكتب له ما أراد باللغة البربرية وترجم هذا الكتاب الى اللغة العربية بأمر من الحكم ويعد هذا الكتاب وثيقة حية في تاريخ البرغواطيين ، أستقى منه معظم المؤرخين مادتهم عن أخبار برغواطة وديانتها (3) .

كما وجه الحكم عناية خاصة بتاريخ العلويين فقد شارك بنفسه في تأليف كتاب يتضمن انساب الطالبيين القادمين الى المغرب وكلف معاوية بن هشام المرواني المعروف بابن الشبانية ، بتأليف كتاب في نسب العلويين وغيرهم من قريش ، فوضع له كتاب عنوانه « التاج السنى في نسب آل علي » ولعله يحتوى على أخبار الشيعة في المغرب والاندلس كما يدل عنوانه على ذلك (4) .

---

(1) د . محمود علي مكي : التشيع في الأندلس ، ص 33

(2) د . محمود علي مكي : المرجع السابق ص ، 33

(3) المقرى : نفح الطيب جـ 4 ص 60 ـ عبد الله يوسف الغنيم : مصادر البكرى ومنهجه الجغرافي ، ص 137 ـ الكويت 1974 م .

(4) د . محمود علي مكي : المرجع السابق ، ص 33 ـ 34